"خزانة الجاحظ".. قرنان في مهنة الوراقة والاحتفاء بالكتاب

جعفر العقيلي*

تُعدُّ "الخزانة" التي تتَّخذ من كشكٍ كـ"الكرفان" مقرًّا لها، من أقدم مشاريع المكتبات المتنقلة في الأردن، بل ومنذ زمن الدولة العثمانيّة والانتدابين الفرنسي والبريطاني على المنطقة، وربَّما كانت البداية سنة ١٨٩٣، من بلدة الكرك، قبل أن يتَّسع نشاط الخزانة ليشمل القدس والخليل ومدنًا أخرى في فلسطين والأردن. وقد زوّد القائمون عليها الجامعات بنوادر الكتب والمخطوطات القديمة، وبإمكان المهتمين الاطلاع على طبعات الكتب المدرسيّة التي صدرت في فلسطين والأردن منذ ثلاثينات القرن العشرين.

في وسط البلد بالعاصمة الأردنيّة عمّان، وقريبًا من مبنى البريد المركزي ومطعم هاشم الشعبي، تقف "خزانة الجاحظ" بلسانها الممتد على الرصيف لتروي حكاية المكان الذي شهد تحوُّلاتٍ وخططَ توسُّعٍ غيّرت في وجهه كثيرًا، وبدّلت ملامحه، بينما ظلت "الخزانةُ" الثابتَ الوحيد في الصورة.

وتُعدُّ "الخزانة" التي تتَّخذ من كشكٍ كـ"الكرفان" مقرًّا لها، من أقدم مشاريع المكتبات المتنقلة في الأردن، بل ومنذ زمن الدولة العثمانيّة والانتدابين الفرنسي والبريطاني على المنطقة، وها هي اليوم الوجهة المفضّلة للكتّاب والمثقفين والقرّاء من الشرائح كافة، والذين يبحثون عن ضالّتهم من المراجع والكتب ذائعة الصيت أو الأكثر مبيعًا أو النادرة، فيقدمها لهم أبناء سادنها "هشام المعايطة" الذي غيّبه الموت عام 2018، بأسعار زهيدة.

هناك أكثر من رواية يتناقلها الأحفاد حول

---

* كاتب أردني
jaloqaily@yahoo.com

خزانة الجاحظ - عمّان

تأسيس المكتبة وتاريخها، منذ كانت خزانة حديديّة مرتبطة بمشروع "صاع خليل الرحمن" زمنَ الخلافة العثمانيّة. وهو مشروع كان يعمل على استنساخ المخطوطات ونقلها للمشايخ لتعميم المعرفة، وتعليم الناشئة القرآن الكريم ولغتهم العربيّة. وقد تولّاه الجدّ محمد مطلق المعايطة، وتاليًا ابنه سلمان. وربَّما كانت البداية سنة 1893، من بلدة الكرك الواقعة جنوب الأردن، قبل أن يتَّسع نشاط الخزانة ليشمل القدس والخليل ومدنًا أخرى في فلسطين والأردن.

وعندما قامت الثورة العربية مطلع القرن العشرين، غادر خليل ابن سلمان المعايطة مدينةَ الكرك وتنقّل بين العراق وسوريا، قبل أن يستقر به المقام في القدس سنة 1921 متّخذًا للخزانة الحديديّة موقعًا قرب حائط البراق. ثم واصل عمله في الوراقة إلى جانب طلب العلم، وجمعَ خلال ذلك الكثير من المخطوطات قبل أن يُستشهد عام 1947 في منطقة العيزرية، وفي تلك الأثناء تعرَّضت مكتبته للحرق على يد الصهاينة ولم يتبقَّ منها إلا الكتب والمخطوطات التي حفظها في منزله بالقدس.

ويُروى أنَّ اسم "الجاحظ" أُطلق على خليل، بالنظر إلى جحوظ عينيه، ولعلاقته مع الكتب التي تذكّر بحياة الجاحظ، وبذلك أصبح اسم المكتبة منذ ذلك الحين: "خزانة الجاحظ".

وكان من الطبيعي والمتوقَّع أن يستمر المشروع، بالنظر إلى أنَّ مهنة الوراقة تندرج ضمن المهن العائليّة، وقد تحقق ذلك على يد ممدوح هشام المعايطة (1930-1993) الذي ورث المهنة عن أبيه وجدوده، وعُرف عنه اقتناء المخطوطات النادرة وكتابة الشعر. وكان ممدوح قد التحق بالجيش العربي، وأصيب بانفجار لغم أرضي في منطقة قلنديا أثناء الدفاع عن القدس في عام 1948 ما تسبّب في قطع قدمه، فعاد إلى الأردن، ثم سافر إلى بيروت لتلقّي العلاج، وهناك تعرّف على تقنيات الوراقين وطبيعة عمل دُور النشر والمطابع، فاتَّجه تفكيره إلى استئناف مشروع العائلة في عمّان، وكان له ذلك بدءًا من عام 1967.

ولأنها جزء من المكان، فقد مرَّت المكتبة بتحوُّلات عدة على وقع التطوُّرات العمرانيّة في المنطقة المحيطة بها، وهو ما عرّضها لـ"التهجير القسري" والتنقل من مكان لآخر، وفتْح فروع لها ثم إغلاقها، وعندما تعرَّضت لـ"الجرف" والإزالة بسب قرار من السلطات البلديّة في أواسط السبعينات، التفّ ثلّة من المسؤولين والمثقفين الذين واكبوا مسيرتها حولها، وهبّوا لنجدتها.

عادت المكتبة إلى المشهد سنة 1982، متّخذةً مقرًّا لها قرب المدرَّج الروماني وبمحاذاة سبيل الحوريات (موضع التقاء العشاق حول جدول الماء زمن الإمبراطورية الرومانيّة)، وهناك

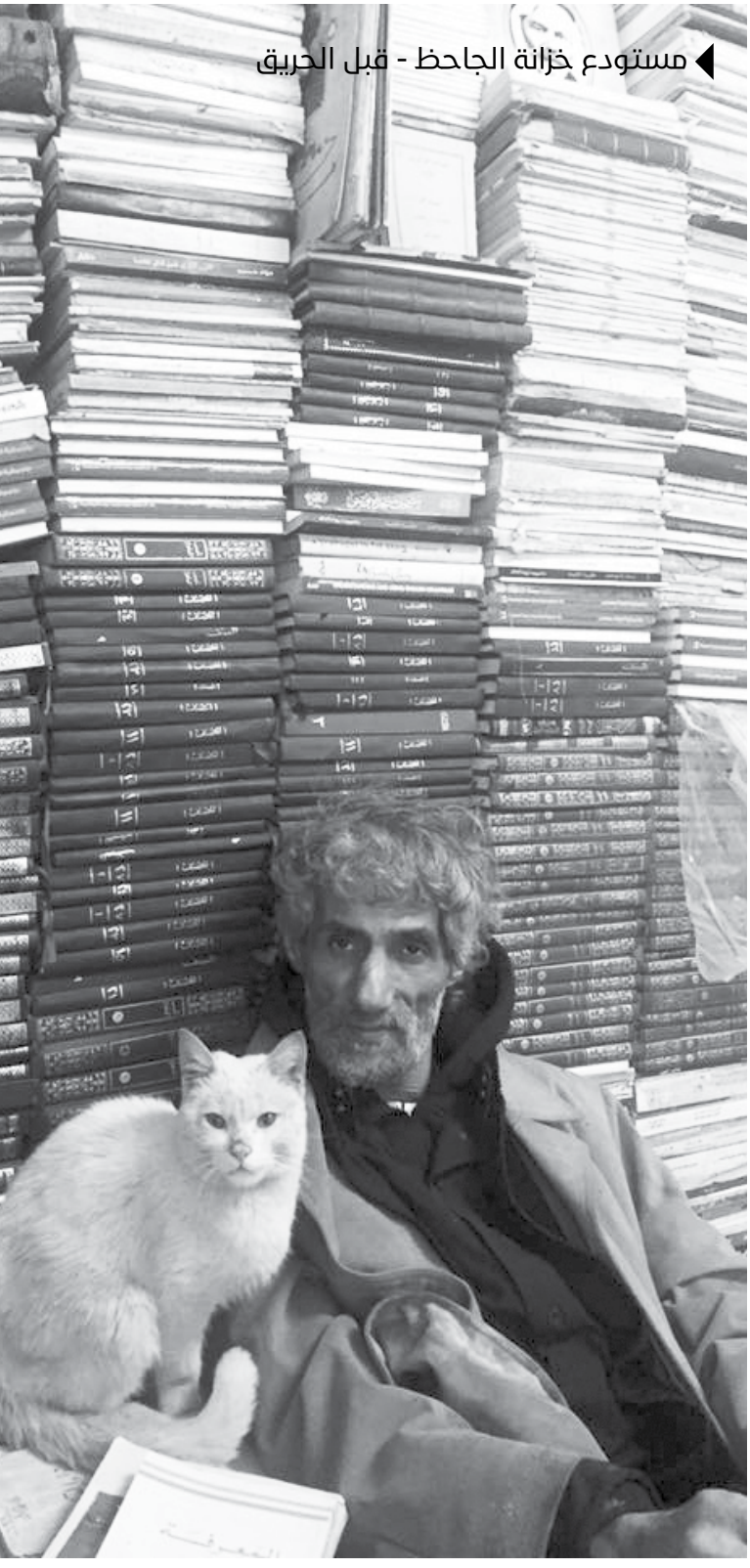

مستودع خزانة الجاحظ - قبل الحريق

أصبح الكتّاب والمثقفون والقراء يلتقون في المساحة المجاورة لها ليقرأوا ما يختارونه من كتب بالمجان ثم يعيدونها إلى رفوفها.

وعلى غرار ما يحدث في المشاريع العائليّة، يدير المكتبةَ اليومَ أبناءُ هشام المعايطة وأشقاؤه محمد وحمزة وبقيّة أحفاد خليل المعايطة الذين يتناوبون في العمل بها، مقدّمين خدمات فريدة تكاد تنقرض، منها إعارة الكتب للقراء الذين لا يمكنهم شراء الكتب لسبب أو آخر، مقابل مبلغ رمزي يجعل من الحصول على المعرفة أمرًا ممكنًا دون إرهاق لجيب القارئ.

ومن مآثر هذه المكتبة التي نُقلت قبل 12 سنة إلى مقرها الجديد في وسط البلد (شارع الملك فيصل بالقرب من مبنى البريد المركزي) معتمدةً على نظام "الخزانة الحائطيّة" و"البسطة المجاورة"، أنَّ القائمين عليها زوَّدوا عددًا من الجامعات بنوادر الكتب والمخطوطات القديمة، وأنَّ بإمكان المهتمين الاطلاع على طبعات الكتب المدرسيّة التي صدرت في فلسطين والأردن منذ ثلاثينات القرن العشرين، بل إنَّ بعض هذه الكتب يعود تاريخ طباعته إلى العهد العثماني.

وتتيح المكتبة بيع الكتاب وتداوله وتبادله وحتى استعارته، فضلًا عن شراء الكتاب المستعمل. وهي تزخر بكتب الأدب والثقافة والعقيدة والسياسة والطب والرياضيات والفلك وأدب الأطفال، إلى جانب مخطوطات يصل عمرها إلى ثلاثة قرون، وكتب نادرة بعضها من أيام الانتدابَين البريطاني والفرنسي على المنطقة العربية، وكتب طُبعت في مطبعة "بولاق" الأميريّة في عهد نابليون.

ومن بين المصنَّفات التي تضمّها الخزانة، أطلس العالم الذي طُبع في لندن عام 1948، وهو متاح فقط للدارسين والباحثين وليس معروضًا للبيع. وهناك أيضًا نسخ متنوعة من كتب إنجليزية قديمة ونادرة، ومجموعة معتبَرَة من المخطوطات العثمانية، ومن بينها معجم مكوَّن من 4 مجلدات تعود طباعته إلى سنة 1888، هذا إلى جانب طبعة حجريّة نادرة أهداها نابليون للمكتبة المصرية، ونسخة من الإنجيل مطبوعة في لندن سنة 1671، وطبعة قديمة تتناول العصر العباسي في كتاب للإتليدي بعنوان "إعلام الناس بما حدث للبرامكة مع بني العباس".

كما يشاهد الزائر على رفوف المكتبة، الأعداد الأولى للمجلات العربية الشهيرة والتي مثّلت منابر معرفيّة في زمنها، على غرار مجلة "النفائس العصريّة" المطبوعة بالقدس سنة 1910.

ويتم توفير الكتب للباحثين وطلبة العلم من خلال نظام إعارة ميسَّر، ومن خلال استبدال الكتب. وبالإضافة إلى أنَّ هذه المكتبة رفعت عبارة "خير جليس" شعارًا منذ تأسيسها، فإنَّ الزائر يشاهد على جدرانها عبارات على غرار "الاستعارة للاستنارة"، و"اقرأ واستبدل ما قرأت"، و"استعر كتابك من عندي". و"كتابي كتابك". وهي تلخّص المبادرات التي تتبناها المكتبة لتحفيز الجمهور على القراءة.

كان هشام المعايطة الذي توفّي عام 2018، ذا "كاريزما"؛ يترك شَعره على سجيته، ويضع لفافة فوق رأسه كأنما هو قادم من العصور القديمة، منتميًا بذلك إلى شريحة الأبطال الشعبيين

حريق مستودع خزانة الجاحظ

الذين نرسم لهم صورًا في المخيلة أثناء طفولتنا. ولم يكن يخفي سعادته بما حققه من رصيدٍ معنوي بعلاقاته مع الكتّاب والقارئ على السواء، مستشهدًا بالألقاب التي يُنادى بها، بدءًا من "الجاحظ" الذي أُطلق على والده وانتقل إليه، وليس انتهاءً بـ"حارس عمّان"، لأنَّ المكتبة لا تغلق أبوابها وتواصل استقبال القراء على مدار 24 ساعة في اليوم.

وها هم أبناؤه يحملون الرسالة، ويواصلون تقديم خدمة إعارة الكتب للقراء -الذين أصبح معظمهم أصدقاء شخصيين لأسرة المكتبة- حرصًا على نشر الوعي بين الناس، وتفهُّمًا للأوضاع الاقتصادية التي يضطر المرء معها إلى اعتبار اقتناء الكتاب رفاهيةً أو من الكماليات. بل إنَّ بإمكان أيّ شخص أن يستعير الكتاب مدة شهر مقابل دينار واحد فقط (ما يعادل 5 دراهم إماراتيّة).

يُشار إلى أنَّ مخزن المكتبة تعرّض إلى حريقٍ في مطلع عام 2018 تسبّبت به قطة آواها صاحب المكتبة من البرد والمطر، والتهم حوالي 10 آلاف من الكتب، وثلاثةَ آلاف نسخة من المصحف الشريف، بالإضافة إلى مئتين من الكتب الحجرية التي طُبعت في "بولاق" الأميرية في عهد نابليون، ومطبعة باب مصطفى الباب الحلبي، والمطابع الكاثوليكية في بيروت، والمطبعة الحيدرية في باكستان، والمطابع الملكية العراقية. لكن هذا لم يحل دون استمرار خزانة الجاحظ في نشاطها انحيازًا لـ"خير جليس" ■